

لوثر والإصلاح

المحاضرة ٢: أزمة الدير وروما

أ.ر. سي. سرول

نُكْمِلُ الْآنَ فِي دِرَاسَتِنَا لِلوُثَرِ وَالِإِصْلَاحِ البُروْتِسْتَانِيّ فِي القَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ. فِي كِتَابٍ كَتَبْتُهُ مُنْذُ سَنَوَاتٍ، وَعُنْوَانُهُ "قَدَاسَةُ اللَّهِ"، جَعَلْتُ فِي الكِتَابِ فَصْلًا كَامِلًا عُنْوَانُهُ "جُنُونُ لُوثَرٍ". سَبَبُ اخْتِيَارِي هَذَا العُنْوَانَ لِلْفَضْلِ، هُوَ أَنَّهُ فِي القَرْنِ العِشْرِينَ شَاعَتْ بَيْنَ العُلَمَاءِ عَادَةٌ أَنْ يَدْرُسُوا شَخْصِيَّةَ لُوثَرٍ وَتَصَرُّفَهُ عَن بُعْدٍ. وَبَعْضُ أَوْلِيَاكِ المُنْخَرِطِينَ فِي حَقْلِ عِلْمِ التَّفْسِيرِ وَالتَّحْلِيلِ التَّفْسِيرِيِّ قَرَّرُوا أَنْ يَسْتَثْمِرُوا مِهْنَتَهُمْ مُنْذُ أَكْثَرِ مِنْ ٤ قُرُونٍ وَنِصْفٍ، وَعَادُوا إِلَى سِجْلِ حَيَاةِ لُوثَرٍ لِيَرَوْا إِنْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ عَصَابِيًّا أَوْ تَجَاوَزَ هَذَا إِلَى عَالَمِ الذُّهَانِ، إِذْ يُطْرَحُ عَلَيْنَا السُّؤَالُ "كَيْفَ اسْتَطَاعَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فِي مَدِينَةٍ مُظْلِمَةٍ فِي أَلْمَانِيَا أَنْ يَقِفَ ضِدَّ الكَنِيسَةِ الكَاتُولِيكِيَّةِ بِأَكْمَلِهَا بِمُفْرَدِهِ؟ أَنْ يَقِفَ بِمُفْرَدِهِ ضِدَّ الإِمْبْرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ المُقَدَّسَةِ، وَيَتَحَدَّى كُلَّ هَذِهِ السُّلْطَاتِ الكُبْرَى مِنْ دُونِ الانْصِيَاعِ؟ مَا الَّذِي جَعَلَهُ يَنْدَفِعُ بِكُلِّ هَذَا الشَّغْفِ؟"

أَيْضًا، مِنْ خِلَالِ قِرَاءَةِ سِجْلِ حَيَاةِ لُوثَرٍ وَالكِتَابَاتِ الَّتِي نَشَرَهَا - الكَثِيرَةَ بِالنَّصْبِ - نُلَاحِظُ فِي بَدَايَةِ دِرَاسَتِنَا لِلوُثَرِ اسْتِخْدَامَهُ المُسْتَمِرَّ لِللُّغَةِ مُتَطَرِّفَةً. لَكِنْ حَتَّى فِي تِلْكَ الأَيَّامِ وَفَقَّ اللُّغَةُ الانْفِعَالِيَّةِ، وَالهُجُومَاتُ اللَّاذِعَةُ عَلَى الأَعْدَاءِ تِلْكَ شَائِعَةٌ، كَانَ لُوثَرُ تَجَاوَزَ مَرْتَبَةَ الأُسْتَاذِ فِي أَنْوَاعِ الجِدَالِ المُعَيَّنَةِ هَذِهِ. أَحَدُ أَفْضَلِ الأُمُورِ الَّتِي فَعَلَهَا مَعَ أَوْلِيَاكِ الَّذِينَ خَالَفُوهُ الرَّأْيِ، كَانَ يَدْعُوهُمْ كِلَابًا. وَعِنْدَمَا كَانَ يَكْتُبُ شَيْئًا وَيَرَى رَدَّ فِعْلِ الكَنِيسَةِ الشَّائِنِ كَانَ يَقُولُ "بَدَأَتْ الكِلَابُ تَنْبُحُ". كَانَتْ تِلْكَ اللُّغَةُ المُلَطَّفَةُ الَّتِي اسْتِخْدَمَهَا لُوثَرُ فِي الجِدَالِ وَالتَّقَاشِ. لَكِنْ كَانَتْ هُنَاكَ نَوَاحٍ أُخْرَى فِي حَيَاتِهِ رَكَزَ المُحَلِّلونَ التَّفْسِيرِيِّونَ عَلَيْهَا.

مُجَدِّدًا، أَذْكَرُ لَكُمْ الانْشِغَالَ الَّذِي تَمَلَّكَهُ بِالدُّنْبِ طِيلَةَ أَيَّامِهِ فِي الدَّيْرِ. لَا شَيْءَ مِمَّا فَعَلَهُ بَدَا أَنَّهُ يَمْنَحُهُ سَلَامَ الفِكْرِ أَوْ هُدُوءَ الضَّمِيرِ. كَمَا قُلْتُ، كَانَ يَقْضِي أَوْقَاتًا طَوِيلَةً فِي الاعْتِرَافِ. وَعِنْدَمَا لَمْ يَنْجَحْ هَذَا، كَانَ يَعُودُ إِلَى حُجْرَتِهِ، إِلَى اليَأْسِ بَعْدَ أَنْ أَمْضَى سَاعَتَيْنِ بِالاعْتِرَافِ بِخَطَايَاهُ لِلأَبِ المُعَرِّفِ وَنَوَالِهِ العُفْرَانِ. كَانَ يَعُودُ إِلَى حُجْرَتِهِ لِيَتَذَكَّرَ فَجَاءَةً خَطِيئَةً ارْتَكَبَهَا فِي خِلَالِ الأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ سَاعَةً المَاضِيَّةِ يَكُونُ قَدْ نَسِيَ الاعْتِرَافَ بِهَا. كَمَا انْحَرَطَ أَيْضًا فِي جِلْدِ الدَّاتِ، وَكُلِّ أَشْكَالِ الزُّهْدِ القَاسِي الَّذِي يَلْجَأُ إِلَيْهِ الرُّهْبَانُ لِتَظْهِيرِ أَنفُسِهِمْ مِنْ كُلِّ الأَفْكَارِ الشَّرِّيرَةِ. مُجَدِّدًا، كَانَ لُوثَرُ فِي مَرْتَبَةٍ خَاصَّةٍ فِي تَأْنِيهِ نَفْسِهِ وَمُعَاقَبَةِ نَفْسِهِ لِخَلْصِ ضَمِيرِهِ.

لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَفْهَمُوا أَنَّهُ فِي كَنِيسَةِ القُرُونِ الوُسْطَى، وَهِيَ بِالمُنَاسَبَةِ كَانَتْ فَتْرَةٌ مِنَ التَّارِيخِ فِي القَرْنَيْنِ ١٥ وَ ١٦، تَفَسَّيَ فِيهَا الفَسَادُ بَيْنَ رِجَالِ الدِّينِ بِشَكْلِ وَاضِحٍ وَمُعَلَّنٍ، لِدرَجَةِ أَنَّ الكَنِيسَةَ الكَاتُولِيكِيَّةَ نَفْسَهَا تَعْتَرِفُ بِوُجُوحِ أَنَّ هَذِهِ

كَانَتْ مَرَحَلَةً مُحَدِّدًا. وَصَلَ رِجَالُ الدِّينِ فِي أَخْلَاقِهِمْ إِلَى الحُضِيضِ، وَحَتَّى البَابَاوَاتِ فِي تَارِيخِ الكَنِيسَةِ. كَانَ هَذَا عَصْرَ البَابَاوَاتِ المِيدِيشِيِّ وَالبُورْجِيَا، الَّذِينَ كَانُوا فَاضِحِينَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ. عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، فِي تِلْكَ الفَتْرَةِ كَانَتْ وَجْهَةٌ التَّنْظِيرِ بِأَنَّ الطَّرِيقَ الأَوْسَعَ الَّذِي عَلَى المَرءِ أَنْ يَسْلُكَ فِيهِ لِيُضْمَنَ خِلاصَهُ الشَّخْصِيَّ هُوَ أَنْ يُشَارِكَ فِي التَّقَالِيدِ المُقَدَّسَةِ وَأَنْ يَدْخُلَ فِي مِهْنَةٍ مُقَدَّسَةٍ، بِخَاصَّةٍ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى الدَّيْرِ، كَانَ هَذَا يَمْنَحُ المَرءَ طَرِيقًا مُخْتَصِرًا نَحْوَ التَّقْدِيسِ وَبُلُوغِ السَّمَاءِ. إِذَا، كَانَ لُوثرُ مُصَمَّمًا، مِنْ خِلالِ حَيَاةِ الرَّهْبَانَةِ الصَّارِمَةِ، أَنْ يَكْسَبَ سَلَامَ الدَّهْنِ الَّذِي كَانَ يَبْحَثُ عَنْهُ جَاهِدًا.

سُئِلَ فِي إِحْدَى المُنَاسِبَاتِ "أَيُّهَا الأَخُ مَارْتِنُ، أَتُحِبُّ اللهُ؟" فَجَابَ: "أَحِبُّ اللهُ؟ أَحِبُّ اللهُ؟ أَحْيَانًا أَكْرَهُهُ". قَالَ: "أَرَى المَسِيحَ كَقَاضٍ غَاضِبٍ يَحْمِلُ سَيْفَ الدَّيْنُونَةِ وَيُلَاحِظُنِي". وَمُجَدِّدًا، هَذَا الأَنْشِغَالُ بِالدَّنْبِ دَفَعَ عُلَمَاءَ النَّفْسِ لِأَنْ يَقُولُوا إِنَّ هَذَا الحِسَّ المَرَضِيَّ بِالأَنْشِغَالِ الضَّمِيرِ لَيْسَ بِالأَمْرِ المَنْطِيقِيِّ، وَلَيْسَ طَبِيعِيًّا. فَكَّرُوا بِهَذَا. إِحْدَى الصِّفَاتِ المُسْتَحْدَمَةِ لِوَصْفِ النَّاسِ الَّذِينَ لَا صِلَةَ لَهُمْ بِالْوَاقِعِ هُوَ فُتْدَانُ الفُتْدَانِ الطَّبِيعِيَّةِ عَلَى تَعْطِيةِ المَخَافِ وَالدَّنْبِ. عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، هُنَاكَ قِصَّةُ الرَّجُلِ الَّذِي رَفَضَ مُغَادِرَةَ مَنْزِلِهِ، كَانَ يَرْفُضُ حَتَّى الدَّهَابِ فِي نُزْهَةٍ خَوْفًا مِنَ المَخَاطِرِ الَّتِي تُحِبُّهَا مَوَاقِعُ التَّنْزُّهِ، لِذَا أَخَذَتْهُ زَوْجَتُهُ إِلَى طَبِيبٍ نَفْسَانِيٍّ، فَقَالَ، قَالَ الطَّبِيبُ النَّفْسَانِيُّ "لِمَ تَخَافُ مِنَ الدَّهَابِ فِي نُزْهَةٍ؟" قَالَ: "إِنَّ ذَهَبْتُ فِي نُزْهَةٍ فَالطَّعَامُ فِي الحَارِجِ، فِي الشَّمْسِ، يُمَكِّنُنِي أَنْ أَتَسَمَّ بِالطَّعَامِ وَأَمُوتَ. لَيْسَ ذَلِكَ فَحَسْبُ، لَكِنْ أَذْهَبُ إِلَى الحَارِجِ وَأَكُلُ، وَهُنَاكَ أَفَاعٍ فِي العُشْبِ، لَرُبَّمَا تُوجَدُ هُنَاكَ أَفْعَى سَامَةٌ تُخْرُجُ وَتَلْسَعُنِي فَتَقْتُلُنِي، أَوْ إِنْ قُدْتُ إِلَى مَكَانِ النُّزْهَةِ قَدْ تَصَدَّمُنِي سَيَّارَةٌ وَأَمُوتَ. العَالَمُ فِي الحَارِجِ مَلِيءٌ بِالمَخَاطِرِ كُلِّ دَقِيقَةٍ".

مَازَا سَيَقُولُ الطَّبِيبُ النَّفْسَانِيُّ؟ "لَيْسَ هُنَاكَ مِنْ خَطَرٍ فِي قِيَادَةِ السَّيَّارَةِ؟" بِالطَّبَعِ رُكُوبُ السَّيَّارَةِ فِيهِ خَطَرٌ. "لَيْسَ هُنَاكَ مِنْ خَطَرٍ بِالتَّسَمُّمِ العِدَائِيِّ؟" بِالطَّبَعِ هُنَاكَ خَطَرٌ بِالتَّسَمُّمِ العِدَائِيِّ. "لَيْسَ مِنْ خَطَرٍ بِالسَّعَةِ أَفْعَى سَامَةٍ؟" اسْأَلُوا السَّيِّدَةَ هُنَا فِي الصَّفِّ الثَّالِثِ الَّتِي تَتَعَاوَى مِنْ لَسَعَةِ أَفْعَى سَامَةٍ مُؤَخَّرًا. إِذَا تِلْكَ المَخَاطِرُ حَقِيقِيَّةٌ، لَكِنْ مَنْ يَبْقَى بَعِيدًا عَنِ النُّزْهَاتِ مِنْ أَجْلِهَا؟ فِي أَذْهَانِنَا آيَاتُ دِفَاعٍ مُوجُودَةٌ لِحِمَايَتِنَا مِنَ الحُطَرِ الوَاضِحِ وَالمَوْجُودِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَقَدْ يَكُونُ لِلشَّخْصِ تَقْدِيرٌ مُنَاسِبٌ لِلخَطَرِ الحَقِيقِيِّ، لَكِنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ مَجْنُونٌ لِأَنَّهُ تَخَلَّى عَنِ الاسْتِخْدَامِ، عَنِ الاسْتِخْدَامِ الطَّبِيعِيِّ لِآيَةِ الدَّفَاعِ.

انْقُلُوا هَذَا إِلَى مَسْأَلَةِ الدَّنْبِ. كَانَ لُوثرُ رَجُلًا يَشْعُرُ بِالدَّنْبِ. فَهَمَ نَامُوسَ اللهُ كَمَا لَمْ يَفْهَمَهُ أَيُّ مَسِيحِيٍّ عَلَى الأَرَجِ مِنْذُ الرُّسُولِ بُولُسَ. كَانَ يَعْرِفُ القِصَاصَ، وَحِدَّةَ القِصَاصِ لِكَسْرِ نَامُوسِ اللهُ، وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ رُوحَهُ مُعَرَّضَةٌ إِلَى عَذَابٍ مُحْتَمَلٍ فِي دَيْنُونَةِ أَبَدِيَّةٍ. مُعْظَمُ النَّاسِ يَجْعَلُونَ مِنْ دَنبِهِمْ أَمْرًا مُنْطِيقِيًّا، وَيُنْكَرُ مُعْظَمُ النَّاسِ دَنبَهُمْ. فَلِلشَّخْصِ الطَّبِيعِيِّ آيَةُ دِفَاعٍ طَبِيعِيَّةٌ لِيَهْرَبَ مِنْ أَيِّ أَفْكَارٍ عَنِ دَيْنُونَةِ اللهُ. وَيُذْهِلُنِي تَمَامًا كَيْفَ أَنَّ مَلَائِينَ وَمَلَائِينَ النَّاسِ يَمُرُّونَ

بِهَذَا طِبَلَةَ حَيَاتِهِمْ مِنْ دُونِ التَّفَكِيرِ بِمَا سَيَحْدُثُ لَهُمْ عِنْدَمَا يَقِفُونَ أَمَامَ إِلَهٍ عَادِلٍ وَيَتَوَجَّبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُقَدِّمُوا حِسَابًا عَنْ كُلِّ كَلِمَةٍ بَاطِلَةٍ قَالُوهَا.

أَخَذَ لُوثرُ تَعَالِيمَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ هَذِهِ بِشَكْلِ جَدِّي جَدًّا. وَكَمَا ذَكَرْتُ، كَانَ نَامُوسُ اللَّهِ يُرْعِبُهُ. إِذَا السُّؤَالُ هُوَ، هَلْ كَانَ مَجْنُونًا؟ قِيلَ إِنَّ الْحَدَّ الْفَاصِلَ بَيْنَ الْجُنُونِ وَالْعَبَقْرِيَّةِ هُوَ قَلِيلٌ. وَأَطُنُّ عِنْدَمَا أَقْرَأُ كِتَابَاتِ لُوثرِ وَأَنْظُرُ إِلَى لُوثرِ أَنَّهُ كَانَ يَجُولُ هَذَا الْحَدَّ الْفَاصِلَ ذَهَابًا وَإِيَابًا طِبَلَةَ حَيَاتِهِ. كَانَ صَحِيَّةً فِي الْكَثِيرِ مِنَ التَّوَاجِي لِعَبَقْرِيَّتِهِ وَأَفْكَارِهِ الْخَاصَّةِ. حَدَّثَتْ أحيانًا أَرْمَاتُ أُخْرَى فِي حَيَاتِهِ تُعَزِّزُ هَذَا التَّشْخِصَ أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا غَيْرَ مُتَوَازِنٍ، وَرَبِّمَا يُعَانِي مِنَ الدَّهَانِ. حَدَّثَتْ الْأَرْمَةُ الْأُولَى عِنْدَمَا كَانَ سَيَحْتَفِلُ بِقُدَّاسِهِ الْأَوَّلِ كَرَاهِيٍّ مَرْسُومٍ. بَيْنَ وَقْتِ دُخُولِهِ إِلَى الدَّيْرِ كَمُبْتَدِيٍّ وَاحْتِفَالِهِ بِقُدَّاسِهِ الْأَوَّلِ، تَمَكَّنَ مِنْ إِصْلَاحِ الْأُمُورِ مَعَ وَالِدِهِ. أَنَا وَاثِقٌ مِنْ أَنَّ مَارْغَرِيْتَا وَالِدَتَهُ التَّمَسَّتِ الرَّحْمَةَ مِنْ زَوْجِهَا لِئَلَّا يَكُونَ قَاسِيًا عَلَى ابْنَيْهِمَا الْعَاصِي الَّذِي فَضَّلَ حَيَاةَ الرَّهْبَنَةِ عَلَى حَيَاةِ الْمُحَامَاةِ الْمُزْدَهَرَةِ. لِيَا، عِوَضَ أَنْ يَتَبَجَّحَ هَانَسُ لُوثرِ لِشُرَكَائِهِ فِي عَالَمِ الْعَمَلِ عَنِ ابْنِهِ الْمُحَامِي، كَانَ سَيَتَبَجَّحُ بِابْنِهِ الْمَرْسُومِ كَاهِنًا.

لِيَا، فِي الْيَوْمِ الَّذِي كَانَ يُفْتَرَضُ بِلُوثرِ الْإِحْتِفَالُ بِقُدَّاسِهِ الْأَوَّلِ، وَرَعَ هَانَسُ لُوثرِ دَعَوَاتِ شَخْصِيَّةً عَلَى شُرَكَاءِ عَمَلِهِ الْمُقَرَّبِينَ فِي مَجَالِ عَمَلِ تَنْقِيْبِ الْمَنَاجِمِ، الَّذِينَ كَانَ مُنْخَرِطًا مَعَهُمْ. إِذَا، أَحْضَرَ شُرَكَاءَهُ إِلَى الدَّيْرِ فِي إِيْرِفُورْتِ لِيَشْهَدُوا قُدَّاسَ ابْنِهِ الْأَوَّلِ، وَنَظَّمَ حَفْلَةً لِلْإِحْتِفَالِ بَعْدَهَا. عِنْدَمَا أَتَتْ لِحَفْلَةِ الْإِحْتِفَالِ فِي الْقُدَّاسِ، فِي مَرَاجِلِ الْقُدَّاسِ الْأَوَّلِ، عَبَّرَ لُوثرُ، الْمُتَزَيِّنُ بِثِيَابِ الْكَاهِنِ بِنِظَامِ لِيْتُورْجِيَا، الْقُدَّاسِ بِدُونِ أخطاءٍ، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ الدَّقِيقَةِ مِنَ الْقُدَّاسِ حَيْثُ تَحْدُثُ مُعْجَزَةُ الْإِسْتِحَالَةِ الْجُوهَرِيَّةِ، حَيْثُ تَتَحَوَّلُ الْمَوَادُّ الْعَادِيَّةُ مِنْ خُبْزٍ وَخَمْرٍ بِشَكْلِ يَفُوقِ الطَّبِيعَةَ، بِشَكْلِ مُعْجِزِيٍّ، تَتَحَوَّلُ إِلَى جَسَدِ يَسُوعَ وَدَمِهِ فِعْلِيًّا. يَحْدُثُ هَذَا خِلالَ صَلَاةِ التَّقْدِيسِ، وَهِيَ إِحْدَى السُّلْطَاتِ الْمَمْنُوحَةِ لِلْكَاهِنِ عِنْدَ الرَّسَامَةِ، أَنَّهُ يَتَحَلَّى الْآنَ بِسُلْطَةِ تَلَاوَةِ الصَّلَاةِ الَّتِي سَيَسْمَعُهَا اللَّهُ لِيُحَقِّقَ هَذِهِ الْمُعْجَزَةَ الْمُذْهِلَةَ. فِي اللَّحْظَةِ مِنَ الْقُدَّاسِ الَّتِي تُقَالُ فِيهَا صَلَاةُ التَّقْدِيسِ فَتَحَ لُوثرُ فَمَهُ لِيَقُولَ الْكَلِمَاتِ، وَلَمْ يَخْرُجْ شَيْءٌ. وَوَقَفَ مُسَمَّرًا عِنْدَ الْمَذْبُوحِ، مُرْتَعِبًا وَقَطْرَاتُ الْعَرَقِ تَتَصَبَّبُ عَلَى جَبِينِهِ، وَالرُّعْبُ ظَاهِرٌ فِي جَسَدِهِ بَيْنَمَا شَفَتَاهُ تَرْتَجِفَانِ، لَكِنَّهُ عَجِزَ بِبَسَاطَةٍ عَنْ قَوْلِ الْكَلِمَاتِ. فِي وَسْطِ هَذِهِ اللَّحْظَةِ الْمُحْرِجَةِ، وَقَفَ أَحَدُ الْكَهَنَةِ الْآخَرِينَ وَقَالَ الصَّلَاةَ عَنْ لُوثرِ، مِمَّا حَوَّلَ لِلْقُدَّاسِ أَنْ يُكْمَلَ.

اغْتَاظَ هَانَسُ لُوثرُ جَدًّا. أَلَيْ لِيْكَ يَتَبَجَّحُ بِابْنِهِ الْكَاهِنِ لَكِنَّ ابْنَهُ فَشِلَّ، فَشِلَّ بِشِدَّةٍ فِي أَفْدَسِ وَقْتِ، مِمَّا أَحْرَزَ وَالِدَهُ وَأَحْرَجَهُ تَمَامًا. بَعْدَئِذٍ أَخَذَ هَانَسُ مَارْتِينَ جَانِبًا لِجِوَارٍ قَصِيرٍ "مَاذَا حَدَّثَ هُنَاكَ؟ مَا حَظُّبِكَ؟ أَتَطُنُّ أَنْ لَدَيْكَ دَعْوَةٌ؟ أَتَطُنُّ أَنْ اللَّهُ دَعَاكَ أَنْ تَكُونَ كَاهِنًا؟ رَبِّمَا ظَهَرَ لَكَ الشَّيْطَانُ وَخَلَّتُهُ دَعْوَةٌ إِلَى الْكَهَنُوتِ". أَجَابَهُ لُوثرُ: "أَلَا نَهْمُ؟ كُنْتُ أَحْمِلُ جَسَدَ يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَدَمَهُ بَيْنَ يَدَيَّ. كَيْفَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَحْمِلَ هَذِهِ الْأُمُورَ وَأَنَا رَجُلٌ خَاطِيٌّ؟ كَيْفَ يُمَكِّنُنِي

أَنْ أَتَكَلَّمَ بِشَكْلِ طَبِيعِي فِي حُضُورِ مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ الْمُدْهِلَةِ وَالرَّائِعَةِ؟" هُنَا تَكْمُنُ الْمُسْكِلَةُ، لَيْسَتْ فِي أَنْ لُوَثِرَ مَجْنُونٌ، فَقَدْ كَانَ يُؤْمِنُ بِهَذَا فِعْلًا. كَانَ يُؤْمِنُ فِعْلًا أَنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ حَاضِرٌ هُنَاكَ. كَانَ يُؤْمِنُ فِعْلًا أَنَّهُ يَقِفُ عَلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ. بَيْنَمَا كَانَ الْكَهَنَةُ الْآخَرُونَ يَمْرُونَ بِالْمَرَامِسِ وَالْكَلِمَاتِ مِنْ بَابِ الْعَادَةِ، كَانَ لُوَثِرُ يَرْتَجِفُ فِي إِنْسَانِيَّتِهِ لِأَنَّهُ فِي مَحْضَرِ الْقُدُوسِ.

قُلْتُ مُنْذُ بَضْعِ لِحَظَاتٍ إِنَّ دَرْبَ الدَّعْوَةِ الرَّهْبَانِيَّةِ كَانَ يُعْتَبَرُ مِنْ أَبْرَزِ الطَّرِيقِ لِلْحُصُولِ عَلَى الْخِلَاصِ. لَكِنَّ عُنْصُرًا مُهِمًّا جِدًّا آخَرَ سَيَبْرُزُ وَسَطَ أَرْزَمَةِ إِصْلَاحِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، وَهُوَ مُمَارَسَةُ الْحُجِّ. الْحُجُّ هُوَ عِنْدَمَا يَذْهَبُ الرَّائِرُ إِلَى كَاتِدْرَائِيَّةٍ فِيهَا مُذَخَّرٌ، وَالْمُذَخَّرُ هُوَ الْقِسْمُ مِنَ الْكَاتِدْرَائِيَّةِ حَيْثُ يُحْفَظُ أَثَرٌ، أَوْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْآثَارِ الْقَدِيمَةِ يَتِمُّ حِفْظُهَا، أُمُورٌ كَعِظَامِ الرُّسُلِ أَوْ شَعْرَةٍ مِنْ لِحْيَةِ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانِ أَوْ حَلِيبٍ مِنْ صَدْرِ الْعَدْرَاءِ مَرِيَمَ وَأُمُورٍ مُمَاتِلَةٍ. كَانَ فِي كُلِّ كَنِيسَةٍ آثَارٌ مِنْ نَوْعٍ مَا. وَبَعْضُ الْكَاتِدْرَائِيَّاتِ كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِمَجْمُوعَةٍ صَخْمَةٍ مِنَ الْآثَارِ، وَسَنَتَكَلِّمُ عَنْ هَذَا مُجَدِّدًا لَاحِقًا لِنُتَاقِشَ مَجْمُوعَةَ الْآثَارِ الْمَوْجُودَةِ فِي وَيتِينْبِرْغِ نَفْسِهَا. حَيْثُ بِاسْتِطَاعَةِ الرَّائِرِ أَنْ يَذْهَبَ وَمِنْ خِلَالِ مُرُورِهِ بِهَذِهِ الرَّحْلَةِ، وَهُوَ الْحُجُّ إِلَى مَوْقِعٍ مُقَدَّسٍ يَسْتَطِيعُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ فِي تَوَاصُلٍ مَعَ كُلِّ هَذِهِ الْأُمُورِ الْمُقَدَّسَةِ، فَتَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَسْتَفِيدُوا جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْعُفْرَانِ وَالسَّمَاكِ عَلَى خَطَايَاكُمْ الْآنَ وَفِي الْمَطْهَرِ.

كَانَتْ تِلْكَ مَسْأَلَةٌ كُبْرَى. وَبِالطَّبِيعِ، الْمَدِينَتَانِ الْأَكْثَرُ قِيمَةً فِي الْعَالَمِ لِلْحُجِّ هُمَا أُورُشَلِيمُ وَرُومًا. رُومًا، كُرْسِيُّ الْقَدِّيسِ بَطْرُسَ. وَرُومًا، الْمَرْكَزُ الْمَرْيُّ لِلْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ، حَيْثُ تَرْفُدُ عِظَامُ بَطْرُسَ وَعِظَامُ بُولْسَ أَيْضًا. لِذَا أَنْ تَسْنَحَ لَكُمْ فُرْصَةَ الْقِيَامِ بِالرَّحْلَةِ مِنْ أَلْمَانِيَا إِلَى رُومًا كَانَتْ تِلْكَ فُرْصَةً مُدْهِلَةً. وَمَا حَدَثَ هُوَ أَنَّ ٢ مِنْ رُهْبَانِ الدَّيْرِ الْخَيْرِ الْخَيْرِ لِلْقِيَامِ بِالرَّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ مِنْ أَلْمَانِيَا إِلَى رُومًا فِي بَعْضِ أَعْمَالِ الدَّيْرِ وَمَرْكَزِهَا فِي رُومًا، وَكَانَ لُوَثِرُ أَحَدَ الرَّاهِبِينَ اللَّذِينَ اخْتِيرَا لِلْقِيَامِ لِذَلِكَ. وَرُبَّمَا مَتَحَهُ هَذَا الْاِخْتِيَارُ فَرَحًا أَعْظَمَ مِنْ أَيِّ اخْتِيَارَاتِهِ فِي الدَّيْرِ. نَدْمُهُ الْوَحِيدُ أَنْ وَالِدَتَهُ وَوَالِدَهُ كَانَا لَا يَزَالَانِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْ رِحْلَتِهِ إِلَى رُومًا وَيَجْعَلَهَا رِحْلَةً حَجٍّ، وَيَسْتَخْدِمَ الْعُفْرَانَ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ مِنْ تِلْكَ الرَّحْلَةِ لِأَهْلِهِ. لَكِنَّ بِمَا أَنَّهُمَا كَانَا لَا يَزَالَانِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ عَجَزَ عَنْ فِعْلِ هَذَا، فَكَّرَسَ حَجَّهُ هَذَا لِجَدِّهِ. وَكَانَتْ الرَّحْلَةُ تَسْتَمِرُّ عِدَّةَ شُهُورٍ سَيَّرَا عَلَى الْأَقْدَامِ مِنْ أَلْمَانِيَا إِلَى رُومًا. لَا أَظُنُّ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى هُنَاكَ فِي عَامِ ١٥١٠. أَظُنُّهُ كَانَ الْعَامَ ١٥١١ عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ.

كَانَتْ رِحْلَتُهُ إِلَى رُومًا أَهَمَّ تَحَرُّرٍ مِنَ الْوَهْمِ فِي حَيَاتِهِ. عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى رُومًا، عَوَّضَ أَنْ يَجِدَ مَدِينَةً مُقَدَّسَةً وَجَدَ مَدِينَةً تَتَمَيَّزُ بِفَسَادٍ لَا مَثِيلَ لَهُ. لَاحِظْ أَنَّ الْكَهَنَةَ فِي الْمَدِينَةِ هُنَاكَ يَقُومُونَ بِحُمُسَةِ أَوْ سِتَّةِ قُدَّاسَاتٍ بِالسَّاعَةِ، يَمْرُونُ بِالْعَالِيمِ اللَّيْتُورْجِيَّةِ بِأَسْرَعِ مَا يُمَكِّنُهُمْ تَرْدَادُ الْكَلِمَاتِ لِيجْمَعُوا أَنْعَابَهُمْ بَعْدَيْدٍ، مِمَّا رَوَّعَ هَذَا الرَّاهِبَ الشَّابَّ الْمِثَالِيَّ. وَالْأَسْوَأُ مِنْ هَذَا كَانَ تَصَرُّفُ الْكَهَنَةِ الْحِنْسِيِّ فِي رُومًا، الَّذِينَ كَانُوا قَدِ انْحَرَطُوا بِشَكْلِ اعْتِيَادِيٍّ بِاللُّجُوءِ إِلَى

بَاعَةِ الْهَوَى مِنْ نِسَاءِ وَرِجَالٍ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ. لَكِنَّ بِالنَّسَبَةِ إِلَيْهِ، كَانَ أَهَمُّ مَا فِي الْحَجِّ هُوَ زِيَارَةُ كَنِيسَةِ اللَّاتْرَانِي، وَهِيَ الْكَنِيسَةُ الْأَسَاسِيَّةُ فِي رُومَا فِي الْمَدِينَةِ قَبْلَ بِنَاءِ كَاتِدْرَائِيَّةِ مَار بَطْرُسَ، لِأَنَّ كَنِيسَةَ اللَّاتْرَانِي تَضُمُّ الدَّرَجَ الْمُقَدَّسَ، تِلْكَ هِيَ السَّلَامُ الَّتِي أَعَادَهَا الصَّلِيبِيُّونَ عِنْدَمَا ذَهَبُوا لِأُورُشَلِيمَ، وَهِيَ السَّلَامُ الَّتِي تَقُودُ الشَّخْصَ نَحْوَ سَاحَةِ الْمُحَاكَمَةِ حَيْثُ حَاكَمَ بِيلاطُسُ الْبُنْطِيُّ يَسُوعَ.

لِذَا، وَفَقِ سِجَلَاتِ التَّارِيخِ، هَذِهِ هِيَ السَّلَامُ عَيْنُهَا الَّتِي سَارَ عَلَيْهَا رَبَّنَا صُغُودًا وَنُزُولًا. لِذَا، قَامَ الصَّلِيبِيُّونَ بِتَفْكِيكِ الدَّرَجِ بِأَكْمَلِهِ فِي أُورُشَلِيمَ وَأَعَادُوهُ مَعَهُمْ إِلَى رُومَا، وَأَمْسَى نِقْطَةً مَحْوَرِيَّةً لِلْعُفْرَانِ. إِنْ ذَهَبْتُمْ إِلَى الدَّرَجِ الْمُقَدَّسِ، كَانَ الزَّائِرُ يَصْعَدُ هَذَا الدَّرَجَ عَلَى يَدَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ مُرَدِّدًا أَبَانَا أَوْ السَّلَامَ عَلَى كُلِّ دَرَجَةٍ مِنَ الطَّرِيقِ حَتَّى الْوُصُولِ إِلَى الْقِمَّةِ، لِيَتَلَقَّى عِنْدئِذٍ الْعُفْرَانَ فِي هَذَا الْحَجِّ. ذَهَبْتُ إِلَى رُومَا الْكَثِيرَ مِنَ الْمَرَّاتِ. فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ ذَهَبْتُ فِيهَا إِلَى هُنَاكَ، الْمَكَانُ الَّذِي أَرَدْتُ زيارَتَهُ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ كَانَ كَنِيسَةَ اللَّاتْرَانِي، لِأَرَى إِنْ كَانَ الدَّرَجُ الْمُقَدَّسُ لَا يَزَالُ هُنَاكَ، وَهُوَ كَذَلِكَ. أَرَدْتُ أَنْ أَصْعَدَهَا لِمُجَرَّدِ أَنْتَنِي أَرَدْتُ أَنْ أَرَى أَيَّنَ مَرَّ لَوْثُرُ بِالْأَزْمَةِ. لَمْ أَتَمَكَّنْ مِنَ الْاقْتِرَابِ مِنَ الدَّرَجِ، كَانَ مُعْطَى بِالزَّائِرِينَ لِلْحَجِّ عَلَى أَيْدِيهِمْ وَرُكْبَتَيْهِمْ، وَقُرْبَ الدَّرَجِ لَافِتَةٌ كَبِيرَةٌ تُفَسِّرُ كَمَّ الْعُفْرَانِ الْمُتَوَافِرِ. لَا يَزَالُ هَذَا يَحْدُثُ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ، مَرَّ لَوْثُرُ بِالْعَمَلِيَّةِ بِأَكْمَلِهَا، تَسَلَّقَ كُلَّ دَرَجَةٍ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، مُقْبِلًا كُلَّ دَرَجَةٍ، وَتَلَا الْوَرْدِيَّةَ وَمَا إِلَى هُنَاكَ. عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى الْقِمَّةِ، وَقَفَ وَقَالَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، لَيْسَ لِأَحَدٍ بِالتَّحْدِيدِ "مَنْ يَعْرِفُ إِنْ كَانَ هَذَا صَاحِبًا؟" الشُّكُّ الَّذِي أُلْقِيَ فِي قَلْبِهِ وَنَقِدَ إِلَى رُوحِهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ، لَمْ يَتَخَلَّصْ مِنْهُ إِلَى أَنْ مَرَّ بِتَجْرِبَةٍ أُخْرَى بَعْدَ ٥ سَنَوَاتٍ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خَدَمَاتِ لِيْجُونِيرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقِدِّيسِ أَنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلْإِصْلَاحِ (Reformation Bible College). وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُلُّنَا لَاهَوِيَّيُونَ" (Everyone's A Theologian).